

## 540035 - ما المقصود من كون صفة (العلم والحكمة) متضمنة لجميع صفات الكمال؟

### السؤال

ما معنى قول ابن القيم: "العلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب"؟

### الإجابة المفصلة

أولاً:

ذكر هذا ابن القيم رحمه الله في كتابه: "الرسالة التبوكيّة" (ص: 69).

بعد قوله: "وقوله {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيُّ} متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم، اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه: مصدره عن علمه وحكمته".

وأراد ابن القيم رحمه الله أن يبين أن صفتني العلم والحكمة: تتضمنان جميع صفات الكمال لله تعالى.

وفي ذلك المعنى يقول الشيخ السعدي، رحمه الله: «{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْحَكِيمُ} الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم». انتهى، من "تفسير السعدي" (ص873).

وانظر: معنى دلالة التضمن، ودلالة الالتزام فتوى رقم: (401851).

ثانياً:

صفة العلم تتضمن صفة الحياة؛ إذ لا يمكن أن يتتصف بالعلم، من لا حياة له.

وكونه عز وجل عليماً متتصفاً بكمال العلم فيلزم منه الاتصال بجميع لوازم كمال الحياة؛ من القيومية...الخ.

ثالثاً:

قوله: "وسائل الصفات التي يستلزمها العلم التام": هذه الجملة يحصل بها تفسير وبيان كلام المؤلف رحمه الله؛ والمعنى: أن القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر هي من لوازم العلم التام؛ فمتي تقرر أنه " عليم" ، وهي صيغة مبالغة من الاتصال بالعلم؛ لزم من ذلك، ضرورةً: أن يكون قيئوماً، سمعياً، بصيراً.

"القيوم": هو القائم بنفسه، وتقوم به جميع الموجودات، قال ابن القيم: "هو القائم بنفسه المقيم لغيره". انتهى من "بدائع الفوائد" (2/184)، "طريق الهجرتين" (ص: 44).

فكون الله عز وجل تقوم به جميع الموجودات، خلقاً وانتظاماً وإتقاناً وتدبيراً؛ فهذا لا يكون إلا بعلم تام؛ قال الله تعالى: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) الطلاق/ 12.

فالتدبير الكامل لا يتم إلا إذا كان الله محيطاً بكل تفاصيل الكون، عالماً بما يحدث في كل لحظة، وما سيحدث في المستقبل، وما كان يمكن أن يحدث لو كانت الظروف مختلفة. فالله سبحانه وتعالى لا يدبِّر الكون بالعشوانية أو الصدفة، سبحانه وجل شأنه، بل بعلم كامل يشمل كل شيء.

رابعاً:

صفة القدرة لله عز وجل تستلزم صفة العلم لله تعالى، حيث لا يمكن أن يتصور وجود كمال في القدرة، دون اقتراحه بالعلم فالله: (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/284؛ قدرته عز وجل تشمل كل ما يعلم وما يريد، وقدرتها المطلقة دليل على علمه الكامل.

قال ابن القيم رحمه الله: "وقوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} في عدة مواضع من القرآن، يذكر ذلك عقب ذكره الأجرام العلوية، وما تضمنه من فلق الإospheres، وجعل الليل سكناً، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وحراستها، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه، ليس أمراً اتفاقياً لا يُمدح به فاعله، ولا يثنى عليه به، كسائر الأمور الاتفاقية" انتهى من "شفاء العليل" (ص: 200).

خامساً:

البقاء هنا يعني أن الله تعالى دائم الوجود، لا بداية له ولا نهاية، وهو أبدي. الله لا يموت ولا يزول، بل هو الحي الذي لا يفنى، كما قال الله تعالى: (وَيَقِنَّ وَجْهُ رَبِّكُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) الرحمن/27.

قال الخطابي رحمه الله: "الباقي: هُوَ الَّذِي لَا تَعْتَرِضُ عَلَيْهِ عَوَارِضُ الزَّوَالِ، وَهُوَ الَّذِي بَقَاؤُهُ غَيْرُ مُتَنَاهٍ، وَلَا مَحْدُودٌ، ... بَقَاؤُهُ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ". انتهى من "شأن الدعاء" (ص: 96).

والبقاء الأبدي لله تعالى يتطلب العلم التام بالوجود، وهذا العلم يشمل كل شيء في الكون، بما في ذلك مراحل الزمن، والتغيرات، والتفاعلات، والآثار المترتبة على كل شيء.

إذا كان الله تعالى هو الحي الباقي، فإنه لابد أن يكون عالماً بكل ما هو لازم لبقاء الكون. فمن دون العلم، لا يمكن تصوّر وجود القدرة على الحفاظ على البقاء واستمرارية الكون.

سادساً:

صفة السمع والبصر لله تعالى هما من لوازم العلم التام؛ إذ كيف يوصف بتمام العلم، لو كان في كونه: صوت لا يسمعه. أو يوصف بتمام العلم، لو كان في باطن الأرض، أو أعماق البحار: شيء لا يبصره؛ جل سلطانه من سميع، وسع سمعه الأصوات، بصير بكل شيء، لا يخفى عليه دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

وتتأمل ذلك السياق العجيب البديع، لهذه الآيات الكريمة، من سورة الأنعام:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْأَبْحَرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَمْسِ إِلَّا فِي كِتَبٍ مُّبِينٍ \* سَمْحٌ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ إِلَيْهَا ثُمَّ يَعْنَكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلُ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجَعُكُمْ ثُمَّ يُبَيِّنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرِسِّلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتَ تَوَفَّهُ رُسْلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ \* ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسْبَانِ \* قُلْ مَنْ يُتَجَيِّنُ مِنْ ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَالْأَبْحَرِ تَدْعُونَهُ تَصْرُعاً وَخُفْيَةً لَيْنَ أَنْجَنَّا مِنْ هَذِهِ لَنْكُونَنَّ مِنَ الْشَّكَرِينَ \* قُلِ اللَّهُ يُتَجَيِّنُ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ \* قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) الأنعام/65-95.

وقال الله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعْهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُبَيِّنُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). [المجادلة: 7]. ختم الآية بالعلم وقبلها قال: (ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ...). في "تفسير القرطبي" (146/8): "فمعنى.. أنه يسمع ويرى من الكفار والمؤمنين"، وذلك لعلمه تعالى بكل شيء. وانظر: "تفسير ابن كثير" (4/615)، "تفسير العثيمين" (2/387).

سابعاً:

"الحكمة": هي وضع الشيء في موضعه"انتهى "مدارج السالكين" (2/448).

والحكمة هي الباطن الذي يوجه الإرادة، كما أن الخبرة هي الباطن الذي يوجه العلم.

يقول ابن القيم رحمه الله: "نسبة الحكمة إلى الإرادة، كنسبة الخبرة إلى العلم؛ فالمراد ظاهر، والحكمة باطنـة، والعلم ظاهر، والخبرة باطنـة.

فكمال الإرادة: أن تكون واقعة على وجه الحكمة.

وكمال العلم: أن يكون كافشاً عن الخبرة، فالخبرة باطنـ العلم، وكمالـه.

والحكمة: باطنـ الإرادة وكمالـها". انتهى "بدائع الفوائد" (1/139).

ثامناً:

والعدل من مقتضيات الحكمة؛ فكلـهما وضع الشيء في موضعـه.

قال ابن القيم رحمة الله: "وهو سبحانه حكم عدل، لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه، ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة" انتهى "مختصر الصواعق المرسلة" (ص: 232).

قوله: "ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجهها" فهي حكمة الله ذاتها.

تاسعاً:

قوله: "والحكمة تتضمن كمال... الرحمة والإحسان والجود والبر".

فمن حكمته رحمته تعالى بالإنس والجن والحيوان: ألا يتم عيشهم إلا برحمته الله، وهذا عين الحكمة؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ لِلَّهِ مَا تَرَكَ مِنْهَا رَحْمَةً وَأَحَدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامُ، فِيهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَغْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَحَرَّ اللَّهُ تَسْعَ وَتَسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) رواه البخاري (6469)، ومسلم (2752)، واللفظ له.

قال الراغب الأصفهاني "الإحسان: أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له" انتهى من "المفردات" (ص: 119).

وقال الطبرى: "والبُرُّ: يعني: اللطيف بعباده". "تفسير الطبرى" (21/591).

وقال الزجاج: "يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَيُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ". انتهى من "تفسير الأسماء" (ص / 61)، وانظر: " شأن الدعاء" للخطابي (1/89).

قال ابن تيمية: "قال أهل العلم: الجواد في كلام العرب: معناه الكثير العطاء". انتهى من "بيان تلبيس الجهمية" (1/536).

فحكمة الله تستلزم إحسانه وبره وجوده وثوابه للمحسن؛ فكل هذه الصفات جاذبة ومرغبة لطاعة الله، باعثة لرجاء العبد تجاه ربها؛ قال ابن القيم رحمة الله: "فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء". انتهى من "مدارج السالكين" (2/51).

وكذلك من حكمة الله: العقاب لمن يستحقه، فإن العقاب باعث للخوف والبعد عما حرم الله.

يقول ابن تيمية رحمة الله: "اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء" انتهى من "مجموع الفتاوى" (1/95).

وقال: "فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه، بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث، فسد فساداً لا يرجى صلاحه أبداً، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه" انتهى من "مجموع الفتاوى" (15/21).

فمن حكمة الله إحسانه وبره وجوده وثوابه وعقابه، فلو لا هذه الأمور لكان من خلق الإنسان وإرسال الرسل عبشاً: (أَفَحَسِنْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْتُكُمْ عَبَّادًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) المؤمنون/115.

قال ابن القيم رحمه الله: "إن الله سبحانه وإنما نفى عن نفسه ما ينافي الإثبات، ويضاد ثبوت الصفات والأفعال؛ فلم ينف إلا أمراً عدانياً، أو ما يستلزم العدم ... ونفي العبث المستلزم لنفي كمال الحكمة والعلم". انتهى من "الصواعق المرسلة" (3/1023).

والله أعلم.